الوعظ الديني

وظيفة اجتماعية قبل كل شيء

بقلم الأستاذ سيد قطب

لعل الإسلام أشد الأديان عناية بتكوين المجتمع الصالح ، واهتماما بوضع الأسس التشريعية الدقيقة لقيام العالم الفاضل، فلم يكن همه إعداد النفوس للآخرة وحدها، بل اهتم قبل ذلك بإعداد النفوس لهذه الحياة الدنيا ، وجعل هذه وسيلة لتلك ، وحرص القرآن على أن يكرر صفة أهل الجنة ، بأنهم ، " الذين آمنوا وعملوا الصالحات" .

و إن المتدين ليستطيع أن يقول دون أن يخشى على إيمانه : انه اذا كان الدين الاسلامى قد جعل الدنيا وسيلة للآخرة ، فهو كذلك قد جعل الآخرة بثوابها وعقابها وسيلة لصلاح الدنيا واستقامة أمورها ، وضمان العمل الفاضل فيها .

ونحن نظلم هذا الدين وننسوه غايته الكبرى ، حين نجعله دينا أخرويا فحسب ، ونقف غايته على إعداد الناس للآخرة، ونجعل من همه تصغير الحياة الدنيا بمعنى احتقارها و إهمالها وترك العمل لها .

هـذه مقدمة ساقنى اليها ما أسمعه معظم الأحيان من الخطب المنبرية فى أيام الجمع بالمساجد ، من حض على احتقار الحياة والحط من شأنها وترك مباهجها ومحاسنها ، بل من إنكار هذه المحاسن والمباهج ، باعتبار أن الدين يوحى بمثل هذه الخطب .

وأنا أفهم أن الدين الذى يتضمن كل هـذه النظم التشريعية ، والذى يتـدخل لتنظيم الأحوال الشخصية، بله المعاملات والعقوبات، هو دين يعنى بهذه الحياة الدنيا أشد العناية ويجعل لها قيمة ووزنا .

وهذه الخطب التى تنحو هـذا النحو — فى هذا العصر بصفة خاصة — خطب شاردة عن فهم روح الدين الصحيح ، ينبغى التنبيه الى خطرها على حيوية الشعب وصحـة شعوره بالحياة ، واتجاهه فى آماله وأعماله .

ولحسن الحظ إن الشعب المصرى شعب متدين بطبيعته ، لا منذ الاسلام فقط ، بل من عهد الفراعنة على اختلاف الأديان التى اعتنقها ، والتى أخلص لكل منهـا فى حينه ، لأن طبيعة الإيمـان جزء من كيانه .

واذا كان من حسن الحظ أن الشعب المصرى متدين ، فليس من حسن الحظ أن يكون الوعظ الدينى سالكا هذا المسلك المنفر من الحياة وطيباتها ، الداعى الى الزهد فيهـا بخيرها وشرها . على أن الزهد الذى تصوره هذه الخطب ليس هو الذى يدعو اليه الاسـلام ، بل لا أغالى اذا قلت إن الاسلام يكره مثل هذا الزهد الذى تكون عاقبته إهمال شئون الدنيا . وها هو ذا عمر بن الخطاب أزهد خلفاء المسلمين لم يدع العمل للحياة ولتقوية الأمة الإسلامية وإنشاء الامبراطورية العربية. وفى معنى حديث نبوى : أن بعض الصحابة قالوا يا رسول الله : فلان أفضلنا لأنه يقضى يومه بالمسجد فى العبادة والصلاة . فسأل : ومن يطعمه ويسقيه ؟ قالوا : كلنا نطعمه ونسقيه . قال : كلكم أفضل منه !

على أننا فى عصر تزاحم وغلاب بين الأمم والشعوب ، فاذا هانت علينا هذه الحياة الدنيا ، لم نجد حافزا فى أنفسنا لإصلاح المجتمع واستكمال أسباب القوة ، وأضعنا بهذا ديننا ودنيانا .

* * *

إن مبـاهج الحياة وطيباتها كنوز صالحة للاستثمار ، صالحة لتهذيب النفوس وتصفية أكدارها . وليست هـذه المباهج كلها رجسا من عمل الشيطان ، ولا مفسدة للنفس والقلب ولا مبعدة لهما عن الدين .

وإن الدعوة الى الاهتمام بجمال الحياة فى كل ما يتضح فيه الجمال ، لهى دعوة الى رقى الذوق وتفتح القلب وصفاء الروح ، فهى فى صميمها دعوة الى الرقى والتهذيب ، وسير فى الطريق التى يدعو اليها الدين . وليس هناك أى تعارض بين هذين الاتجاهين .

وهذه الحياة جميلة وعظيمة ما فى ذلك ريب ، واذا كان فى الآخرة للموعودين ما هو أجمل وأعظم ، فان هذا الأجمل والأعظم صورة مكبرة نقية من جمال الحياة ومتعتها ، فكيف نقول مع هذا إن الدنيا حقيرة لا تستحق العناية ، وكيف نسيغ لأنفسنا أن نمر بهذه الفترة مغمضى الأعين ، نحسب هذا من الدين وما هو منه فى شىء !

وإن الرجل الذى يدرك جمال هذه الحياة فيتطلع اليه فى زرقة السماء الصاحية ، وطلعة القمر البهيجة ، وسكون الليل الرهيب ، ويتسمعه فى دوى الرعود ، ونفحات النسيم ، وهمهمة الموج على الشطآن ، ويتلمسه فى الجبل الشامخ ، والوادى الخصيب ، والقفر الموحش ، والنهر المنساب والبحر المسجور ، ويعجب به فى الوجه الصبوح ، والصوت الحنون ، والفعل الكريم . ان هذا الرجل لأعمر قلبا بالإيمان ، وأقرب نفسا الى الله ، وأصفى روحا فى الأرض من كثيرين لا يتطلعون الى مثل هذا الجمال . وإن هذا الاحساس بالجمال ليأى بكثير من النفوس عن الشر والرجس لانهما قبيحان يشوهان فى نظره جمال الحياة الفتان !

على أنه فيم كان الوعظ كله منصبا على الدعوة الغامضة للآخرة، والحط المجمل من شأن الدنيا ؟ وما قيمة هذا فى إصلاح النفوس ؟ ألا إن قصارى مثل هذه الدعوة فيما أرى أن تشعرنا بالكآبة والحزن، وأن تستر عنا متاع الحياة الطيب وجمالها البرىء، دون أن تقربنا للصلاح، أو تدفعنا الى عمل إيجابى يفيد منه المجتمع، ويصلح به العالم، فهذه نغمة يجب أن تختفى من الخطب المنبرية ، ليتجه الوعظ الى علاج عيوب المجتمع المصرى وهى كثيرة .

تتفشى فى هذا الشعب عيوب وأمراض تضر الدنيا وتخل بالدين ، فلنستغل تدين الشعب فى إصلاح تلك العيوب، وتصحيح هذه الأمراض عن طريق الدعوة الدينية، وكلما لمس الخطباء والوعاظ حياتنا اليومية الراهنة فى خطبهم وجدوا آذانا أكثر إصغاء ، وقلوبا أشد تفتحا ، وكانت خطبهم حية لأنها تستمد موضوعها من الحياة .

على أن توجيه الوعظ الى الجانب الاجتماعى ليس عملا هينا ولا ميسرا لكل خطيب فى مسجد ، فإنا أذكر أننى حضرت مرة صلاة الجمعة فى مسجد صغير كانت غالبية المصلين فيه من العمال، وعامة الباعة وذوى الحرف الصغيرة. أفيدرى القارئ فيم كانت خطبة الخطيب؟ لقد كانت تدور حول واجب الأغنياء نحو الفقراء ! من بر و إحسان و إخراج زكاة وتوزيع صدقات . .

ولقد خرج المصلون وهم يتهامسون قائلين : لمن يوجه الخطيب هذا الكلام ؟ ونحن فقراء، ولم تفرض علينا زكاة ولم يفرض علينا إحسان ؟ ولماذا لا يذهب فيوجه كلامه الى الأغنياء الذين عناهم الله عند ماوصى بالبر والاحسان والزكاة ؟

مثل هذا التوجيه دون مراعاة للخاطبين خطر على طمأنينة النفوس وقناعتها ، وبذر لبذور سامة لا يتنبه اليها أولئك المتكلمون باسم الدين .

وفى اعتقادى أنه يجب تنسيق العمل بين وزارة الشؤون الاجتماعية و وزارة الأوقاف على توجيه الأئمة فى المساجد توجيها صالحا، وعلى اختيار خطباء ذوى مواهب خاصة متصلين بالعالم الحى وعائشين بين الحقائق الواقعة لا بين ما يقرأون من كلام محفوظ .

ويجب أن نضيف الى الدعوة المجردة للاصلاح باسم الدين وحده، تنمية روح الإحساس بالخير، وحبه لأنه خير، والتنفير من الشر لأنه شر، وأن نجعل صلاح الحياة وفسادها محورا للحض والنهى ، لأننا نعيش فى هذه الدنيا ، ونشترك فى هذا المجتمع ، ولا نستطيع إهماله والغض من شأنه ، ونحن فى عالم الأحياء !

سيد قطب